ائتنى بعينه

كان عامر بن معاوية الجون الكندى أبو فاطمة من أركان دولة حجر بن الحارث - فهو فارس باسل، وأمير شهم شريف، يؤلف قلوب بنى أسد بكرمه وحلمه، ويشد دولة ابن عمه حجر بشجاعته. ولهذا كان الملك حجر يحرص كل الحرص على مودته وإخلاصه، ويعتمد عليه فيما كان يخشى وقوعه من الكوارث بدولته، فقد كانت الكوارث تخفق فى جو بلاده، كما تخفق أجنحة الخفافيش فى الظلام.

كان بنو أسد عند ذلك يتحركون للوثوب بملكهم حجر لأنهم أحسوا ثقل وطأته عليهم، وشجعهم على ذلك ما سمعوه من اضطراب أمر أبيه الملك الحارث بالحيرة واشتغاله بمحاربة منافسه القديم المنذر بن ماء السماء.

فلما نزح عامر بأهله فى جنح الليل، وباعد بلاد بنى أسد، أحس حجر بأن دعامة قوية من دعائم ملكه زالت من موضعها، ولم يدر ماذا حمله على ذلك النزوح، وأراد أن يعرف السبب الذى دعاه إلى المباعدة، فأرسل الرسل إليه يستدعيه، وكتب إليه الكتب يستعيد مقامه فى جواره؛ فكان عامر يعتذر ويمتنع فى إصرار عجيب.

ولكن السـر فى نزوحه لم يبق طويلا فى أطباق الخفاء، فذاعت منه ذائعة، ثم تردد النبأ خفية فى المجالس، ولم يلبث أن بلغ آذان حجر، وكان وقعه عليه أليمًا. علم حُجر أن ابن عمه قد هرب خوفًا على شرفه من اعتداءِ ولده الحبيب الفتى الشاعر امرئ القيس. علم أن ابن عمه الفارس الشـجاع قد آثر أن يبعد عن موطنه وهو يضمر موجدة لم يقدر على الإبانة عنها، يريد أن يفر بشـرفه سالمًا، قبل أن يكون الفتى الشاعر سببًا فى فضيحته بين العرب، أو عاملا على إثارة العداوة بينه وبين ابن عمه الملك حُجر من أجل المحافظة على عرضه.

وكانـت غضبة حجر على ولده عظيمة عندما عرف ذلك السـر، ولكـن حزنه على مرضه، وجزعه من خوف فقده لم يدعا له مجالا لإظهار غضبه عليه، ولما شفى امرؤ القيس، نسى أبوه الحانق ما ثار فى نفسه من الموجدة عليه، منذ امتلأ قلبه بالفرح لشفاء أعز أبنائه وأقربهم إلى قلبه.

وقـام امرؤ القيس من مرضه الذى أصابه عقب رحيل ابنة عمه، وقد تغيرت نفسه، وتبدلت خلائقه حتى كأنها بعثت بعثًا جديدًا، قام الفتى من الحمّى ورأسه مفعم بالثورة؛ كان من قبل مرضه يحب اللهو، ويسـتخفه المرح، وينشـط إلى الصيد، ويرتـاح إلى المعابثة والمزح، ويستفزه الطرب أحيانًا، فيتغنى بالشعر ويشبب بمحاسن النساء، وتدفعه نشوة الخمر أحيانًا إلى كثير من الإغراق فى القول،

ولكنه كان بعد كل ذلك يضمر فى قرارة قلبه حبًّا واحدًا، ويحرص فى أعماق نفسه على صورة واحدة جعل صدره لها معبدًا: ذلك هو حب فاطمة.

كان يعبث أحيانًا بذكر غيرها، ولكنه كان لا يذكرها فى شعره إلا تلميحًا. وكان يلهو أحيانًا بالتماجن مع فتيات بنى أسد، غير عابئ أن يغضب عليه أحد من أهلهن، ولكنه كان لا يجرؤ على أن ينطق بكلمة قد تغضب فاطمة.

فلما وقع منه ما وقع يوم دارة جلجل، ورحلت فاطمة عن منازلها كانت الصدمة أعنف من أن يقوى عليها شاعر مرهف الحس مثله. فدهدهته وأردَتْه إلى هوة لم يستطع أن يتمالك نفسه فيها، وقام من مرضه الذى أصابه وقد ملأ اليأس قلبه. اليأس من هوى مثل هوى فاطمة. فلم يبق له إلا العبث الذى كان يعبثه بسواها.

وأصبح الشراب الذى كان يتخذه آلة لطربه ومنشِّطًا على سمره ولهوه، مُسكرًا يقبل عليه لكى يغرق فيه يأسه وهمّه، وليهرب فى نسيانه وهذيانه وخَدره من حقائق حياته ومن خذلانه.

وضاقت صدور بنى أسد بما كان يصنعه الفتى السادر فى عبثه. كان يتعرض لفتياتهم ويرصد لنسائهم، لا يبالى الضعيف منهم فيعلن تعرضه لحرمه ويدارى القوى، ولكنه يتخذ من حسنه وشبابه وجاهه أسبابًا للتدسس سرًّا إلى الغواية والفتنة فى عرضه. فتحدث الناس فى مجالسهم بما يحدثه الفتى فيهم، وتحركت

الحفيظة تحت ستار الخفاء، خشية من غضبة الملك حجر الذى عودهم شدة البطش ووبال التنكيل. فكان خطرها أعظم وسريانها أقوى وأسرع.

اجتمع بنو أسد فى شعب من شعاب أرضهم فى ليلة صافية من ليالى البدر. وكان ظاهر أمرهم أنهم ينظرون فى جمع ما طلبه الملك حجر منهم من أموال وجنود يمد بها أباه فى الحيرة وهو فى نضاله العنيف مع منافسه المنذر بن ماء السماء؛ ولكنهم كانوا يلتمسون فى اجتماعهم وجوه الحيل للوثوب به ولإفشاء سره إلى عدوه وعدو أبيه ولإشاعة قالة السوء عنه وعن أهله وقومه وبنيه.

ولما انعقد الجمع واطمأن، ووقف منهم حراسٌ ربيئة عند أطراف الشعب الذى اتخذوه فى تلك الليلة مجمعًا، وقف سيدهم عمرو بن مسعود، فنظر القوم إليه فى صمت وإكبار، وكان رجلا نحيلا رقيق البشرة أبيض اللون فى صفرة، وكانت لحيته البيضاء تكسب وجهه روعة كأنها الإطار الفضى حول صورة رفيقة الألوان وتكلم بنبرات هادئة واضحة فى صوت مطمئن منخفض حتى قال: «لو علمت أن الغدر ينجيكم ما نصحتكم به ولا وافقتكم عليه، فما بالكم وهو يوقع بكم النكبة؟».

فقام رجل من أقصى المجلس ضئيل الجسم، أسمر اللون كأنه يثب وثوبًا وهو قائم، فالتفت الجمع إليه، وتبدلت نظرتهم من الإكبار إلى التحفز والغضب، ولمس الرجل عُثنونه الأسود بيده،

وأجال فى القوم نظرة خاطفة مضطربة ثم بدأ يتكلم مسرعًا بصوت حاد فيه نغمة الحنق حتى قال: «وعلام نصبر بعد اليوم؟ أبعد هتك أعراضنا وإشاعة الفساد بين ظهرانينا نتكلم عن الغدر وعن النكبة؟ وأى نكبة أشد من أن يذهب الرجل منكم إلى التماس رزقه فلا يدرى من يكون فى فراش أهله؟ هذا امرؤ القيس بن حجر فى جماعته، لا تمضى ليلة بغير أن يحدثوا حدثًا من الخنا يتحدثون به فى أسمارهم، وكأنكم قد قنعتم بأن يخلفكم هذا الفتى الجميل على حرمكم، ويلقى على فراشكم بنسله ينسبه إليكم؟».

فتحرك الجلوس حانقين فى مجالسهم وصاحوا بالرجل: «حسبك يا عبيد! كفاك سبًّا لنا يا بن الأبرص!».

فلم يعبأ الرجل بمقاطعتهم، ومضى فى قوله ممعنًا فى تهكمه اللاذع قائلا: «لئن كنتم تشعرون من أنفسكم العجز والضعف عن حماية أعراضكم من هذا العار فدونكم الأرض واسعة، فاضربوا فيها، واخرجوا من مُقامكم الذليل كما خرج عامر بن معاوية الجون يلتمس النجاة بأهله من المعرّة، أما أنا فوحق الأقيصر ومناة، لا بقيت بعد اليوم على ما ترضون به من الهوان».

ثم جلس فى عنف وهو لا ينظر فى وجه أحد ممن حوله. وساد سكون شامل حينًا ليس بالقصير، ثم تردد القوم وجعلوا يتهامسون وينظرون إلى عمرو بن مسعود ينتظرون جوابه. وقام الشيخ بعد حين يتكئ على عصاه فى بطء، فسكنت الأنفاس مرة أخرى، واجتمعت

الأنظار عند وجهه، فمر الرجل بيمناه على جبينه كأنه يمسح عنه العرق، ثم قال بصوته المطمئن: «لقد أفحشن ابن الأبرص وغلبه الحقد على صاحبه امرئ القيس فامرؤ القيس رجل شاعر...».

فنهض عبيدٌ غاضبًا ولم يمهل الشيخ حتى يتم حديثه، وصاح يقاطعه فقال: «إذا كان الشيخ يعجبه الشعر، فإني مسمعه شيئًا من قول امرئ القيس».

ثم اندفع ينشد أبياتًا ويتغنى بها، ويمط ألفاظها ويدس فيها نبرات التهكم والسخرية، فقال:

سموْت إليها بعد ما نام أهلها ... سُموّ حبَاب الماء حالا على حال

فقالت: سباك الله! إنك فاضحي ... ألست ترى السُّمَّار والناس أحوالى

فقلت: يَمينَ الله أبرح قاعدًا ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

حلفت لها بالله حَلفةَ فاجر ... لناموا فما إن من حديث ولا صال

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصَرت بغصن ذى شماريخ ميَّال

وصرنا إلى الحسنى ورقَّ كلامنا ... ورُضتُ فَذلت صعبة أى إذلال

فأصبحت معشوقًا وأصبح بعلها ... عليه القتام سيء الظن والبال

يغط غطيط البكر شُدَّ خناقه ... ليقتلنى والمرء ليس بقتّال

أيقتلنى والمشرفىُّ مُضاجعى ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال

أيقتلنى أنى شغفتُ فؤادها ... كما شغف المهنوءة الرجل الطالى

وقد علمت سلمى وإن كان بعلها ... بأن الفتى يهذى وليس بفعال..

ثم وقف عن الكلام ونظر فى وجوه القوم واطمأن إلى ما بدا عليها من الحقد والغضب، ثم نظر إلى ابن مسعود وقال يخاطبه: «أرى الشيخ قد أعجبه القول وطرب له ولان قلبه للحديث الحلو وإلا فما بالى أراه صامتًا؟».

ونظر القوم إلى ابن مسعود، فرأوه مطرقًا يعبث بالأرض بعصاه وهو واجم فسرت فيهم حركة قلقة وأخذت أصواتهم تعلو فى الجدال، ثم قام رجل كان جالسًا إلى جوار ابن الأبرص فقال: «صدق ابن عمى عبيد، أعلى مثل هذا الهوان نصبر؟».

فزادت حركة القوم وعلت أصواتهم، ثم قام كهل حسن الوجه مديد القامة قوى البنيان، وتكلم فى صوت مجلجل فقال: «صدق المهاجر بن خداش، فما ينبغى الصبر على مثل هذا».

فتعالت الأصوات من جوانب الجمع صائحة: «صدقت يا قبيصة بن نُعيم! صدقت!».

ولم يجد عمرو بن مسعود بدًّا من القول بعد أن رأى قومه يكادون يفلتون من يده، وتحرك للوقوف، ولكن الضجة لم تسكن إلا بعد حين، ورنَّقت على وجوه القوم سحب من الحنق والضجر عندما بدأ حديثه فى لفظ متردد: «لقد علمتم يا معشر بنى أسد أننى لا أسعى إلا فى خيركم. فدعونى ألتمس من هذا الأمر مخرجًا، وسيكون منى ما ترضون».

ثـم التفت إلى المهاجر بن خداش وقبيصـة بن نعيم فقال لهما: «هذا أمر لا بد فيه من المشاورة والتدبير فهلما معى لنتم الحديث».

ثم قام ذاهبًا إلى بيته وسار وراءه الرجلان، وأخذ الجمع ينصرف مثنـى وثلاثَ ورُباع وهم فى جدال حانق ولم يبق غير ابن الأبرص فى جماعـة يحدثهم فى ناحية من الشـعب حتـى مضى صدر من الليل، وكان كل حديثه عن امرئ القيس وشعره وعن قصصه الماجنة مع فتيات بنى أسد.

كان حجر فى مجلسه فى تلك الليلة، فأتى إليه رجل من عيونه الذين كان يبثهم فى رعيته ليستطلعوا له أنباءهم، فوقف إلى جواره حينًا يحدثه فى همس وهـو يصغى إليه فى اهتمام. وتغير مظهره فى أثناء ذلك، فعراه اضطراب وبدا عليه الغضب ثم نظر إلى الرجل وقال: «ولا يزالون هناك؟» فقال الرجل: «بل انصرفوا ولم يبق غير عبيد فى بعض أصحابه».

فصرّ حجر بأسـنانه غيظًا واسـود وجهه وقـال وكأنه يخاطب نفسه: «ذلك الثعبان المتلوى!».

ثم نظـر إلى الرجل مرة أخرى وقال: «وأيـن رأيت امرأ القيس مع أصحابه؟».

فقال الرجل: «فى شعب المقراة».

فنهـض حجـر واقفًا وأشـار إلى الرجل أن يسـير معه، وخرج إلى الفضاء يسـير فى خطوات واسـعة متعجلة. فأفضى بهما السير

بعد حين إلى جانب واد قريب كثير الشجر من السمرُ والضال، يجرى فـى بطنه جدول دقيق، يخر من عين فـى جانبه الصخرى. فوقف الرجل فى احتراس وأشار إلى حجر هامسًا: «هناك عند العين».

فأشـار حجر إليه أن يقف حيث هو، ثم سـار فى خفة فى ظل الصخـور حتى اقـترب من العين، فوقف تحـت حنية من الصخر لا يـراه منها أحد، ورأى هنـاك ما كان يود أن يراه. رأى جمعًا من الفتيان جالسـين حول فتاة خليعة، من فتيات كن لا ينتسـبن فى قبيلة، بل يهمـن على وجوههن بين القبائل يتسـقطن العيش فى منادمة الفتيان وتحمل عبثهم ومشاركتهم فى مجونهم وفجورهم.

وأرهـف أذنيه ليسـمع ما يـدور بينهم من الحديـث، فحمل النسـيم إليه أصوات الضحك والمزاح، وسمع بينها صوت ولده امرئ القيـس وهو يضحك فى فتور الخمر، أو يرسـل فكاهة من فكاهاته الصاخبة يُضحك بها الجمع، فضاق صدره بأنفاسـه، وهمّ أن يذهب نحو الفتيان ليبطش بهم فى غضبه، وليبطش بولده الماجن بينهم، ولكنه لم يكد يسـير خطوة حتى سمع ضجـة عالية وأصواتًا تنادى ولده فى صخب مضطرب لينشـدهم شـيئًا من شـعره. وسمع صوت تابعـه الوفى ربيعة بن عمرو يراجعهم، فوقف متعجبًا من وجوده بينهم وانتظر ليرى ما يكون منه.

وقـف ربيعـة حتى اقترب مـن امرئ القيس وهمـس فى أذنه بكلمات، وأخذ بيده يجذبه كأنه يريد أن يذهب به، ولكن الفتيان

كانوا قد ذهبوا فى شعاب الخمر، وضلت أحلامهم، فحملوا على ربيعة وهم يتمايلون، وجعلوا يجذبونه ويصيحون به أن يجلس أو أن يذهب عنهم، فقد برموا به وضجروا من سوء صحبته.

وضحك امرؤ القيس ضحكة عالية، وجذب ذراعه من صديقه وهو يتمايل، ودفعه بعيدًا عنه قائلا فى لفظ متلعثم: «إليك عنى، واكفف اليوم نصائحك. فلقد أصبحت ثقيلا».

فخجل ربيعة وغضب مما لاقاه به الفتيان، وانصرف حانقًا، وضحكات السخرية تشيِّعه، وقد عزم فى نفسه ألا يصاحب امرأ القيس بعد اليوم. وما كاد يسير خطوات حتى لاحت له يد تشير إليه من جانب الوادى، ففزع خوفًا من أن يكون ذلك عدوًّا يريد أن يهم به، فارتد إلى الوراء قابضًا على سيفه، ثم نظر إلى الشخص الذى بدا من الظل، فما راعه إلا أن يرى الملك حجرًا نفسه وهو أسود الوجه مختلج الأعضاء من شدة الغضب. فذهب إليه ووقف إلى جواره صامتًا، وعند ذلك كان امرؤ القيس قد وقف بين أصحابه وهم يتصايحون به، ثم أخذ يتغنى لهم بأبيات من شعره، وما كاد يبدأ حتى خشعت أصواتهم إلا همهمة الإعجاب وصرخة الطرب بين حين وحين.

بدأ امرؤ القيس فقال وقد ظهر فى صوته رنين من الحنين والحزن:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقْط اللوى بين الدُّخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل

ترى بعر الآرام فى عرصاتها ... وقيعانها كأنه حب فلفل

كـأنى غـداة البين يـوم تحملـوا   لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفا بهـا صحبى علـى مطيّهـم   يقـولون لا تهـلك أسـىً وتجمّـل
وإنَّ شفـائى عَـبرة إن سفحـتُهـا   وهـل عـند رسم دارس من معوَّل
ففاضت دموع العـين منِّى صبابةً   على النحر حتى بلّ دمعى محْملى

فتذكـر ربيعة عندما سمع هـذا الموقف الـذى كاد الفتى يهلك فيــه فى آثار فاطمة وهى مرتحلة. وتذكـر حزنه وبكاءه، ووقوعه خائرًا عند شـجيرات السَّـمرُ، وتذكر كيف كان هو يعزيه ويطلب إليه أن يتجلد ويتجمَّل، وينصحه ألا يهلك نفسـه أسـى. ولم يملك الرجل أن يذرف دمعة من الإشفاق على صديقه المسكين الذى يهوى مع نفسه الثوارة إلى حيث لا يستطيع أحد نجدته.

ولما بلغ امرؤ القيس ذلـك القول صاح به أحد أصحابه وقد غلبه السكر فقال: «دعنا من هذه الدموع يا جندح! فما نحن هنا للبكاء».

وكأن الكلمة وقعت موقع الرضـا من إخوانه، فرددوها وصاحوا بامـرئ القيس فى ألفاظ فاترة من أثر الخمر، يطلبون منه أن يعدل إلى نغمة أخرى أكثر إيناسًا وبشرًا.

فوقف امرؤ القيس لحظة عن الإنشـاد، ثم ضحك ضحكة عالية وقال لأصحابه: إذن فاسمعوا:

ويـوم عقـرت للعـذارىَ مطـيّتى   فيـا عجـبًا مـن رحلهـا المتحمـل
فـظلَّ العـذارى يرتمـين بلحمهـاا   وشحـم كهُـدَّاب الدِّمقـس المفَتَّـل
ويوم دخلـت الخِـدر خِـدر عنيـزة   فقـالت: لك الويـلات إنك مُرجلى

تقول وقد مال الغبيط بنا معـًا عقرت بعيرى يامرأ القيس فانزل
فقلت لها سيرى وأرنى زمامه ولا تُبعدينى من جناك المعلل

فعلتْ عند ذلك صيحة من الفتيان، وجعلوا يرددون بيته فى تَعلثم واسترخاء، ونظر ربيعة إلى حجر فوجده يكاد ينفجر من الغضب. ولكنه أشار إليه بالصمت يريد أن يرى مدى قول ولده الماجن ومضى امرؤ القيس يقول:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير مُعجَل
تجاوزت حراسًا وأهوال معشر علىّ حراصًا لو يُسِرون مقتلى
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرُّض أثناء الوشاح المفصَّل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لِبْسَةَ المتفضِّل
فقالت يمين الله ما لك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلى

وهنا عادت الضجة إلى مثل ما كانت عليه، وجعل الفتيان يكررون الأبيات فى استرخاء من ملكت عليهم الخمر ألسنتهم. بعد لحظة استمر الفتى فى إنشاده:

خرجت بها نمشى تجر وراءنا على أثريْنا ذيل مرط مرجّل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن حَقْفٍ ذى قفاف عَقَنْقل
هصرت بفودى رأسها فتمايلت علىّ هَضيم الكشح ريَّا المخلخل
إذا التفتت نحوى تضوَّع ريحها نسيم الصبا هبت بريَّا القرنفل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

فعادت ضجة الفتيان أشد مما كانت، وجعلوا يرددون أبياته ويتصايحون ويستعيدونه الإنشاد.

ولم يطق حجر الصبر بعد ذلك، فقبض على سيفه وسار مسرعًا نحو الجمع وربيعة في أثره يريد أن يرجعه، والرجل كالفحل الهائج لا يلويه الرسَن.

فلما بلغ دائرة الفتيان ووقعت أنظارهم عليه وقفوا وجلين وهم يتمايلون. فصاح بهم صيحة مروعة قائلا:

«تعسًا لكم أيها الفجرة، زِيَرَةُ نساء ورُضعاء زق!».

ثم جرد سيفه هاجمًا عليهم جميعًا وهم يترنحون، ويقع بعضهم على بعض ولكن امرأ القيس وقف متحديًا وكأن السكر قد ذهب عنه، فلم يتمايل ولم يفزع، بل نظر إلى أبيه في وقاحة وجرأة لم يسبق له مثلها، وقال بلسان معوج: «ماذا تريد منا أيها الشيخ؟».

فرفع حجر يده بالسيف يريد أن يهوى به على رأس الفتى، فأسرع ربيعة وقبض على يمينه وقال يريد أن يهدئه: «ما كان لك أن تفعل ذلك بيدك».

فنظر إليه حجر ولا يزال يختلج من الغضب، ولكنه أغمد سيفه ونظر إلى ولده وقال بصوت يقطر السم: «أهذا أنت أيها الصعلوك الدنيء، تمضي في مثل هؤلاء وتجعل من نفسك ضحكة لهم يتخذونك ملهاة تنشدهم أحاديث دعارتك؟ أهذا أنت أيها الفاسق تتغنى بأخبار جناياتك وجرائمك؟».

وكان حجر على وشك أن يبدأ حملة أخرى من تقريعه، ولكن الألفاظ وقفت على شفتيه، إذ سمع ولده يضحك ضحكة عالية ويقول له فى لهجة الساخر لألفاظ ملتوية: «إذًا لم يعجبك قولى؟ إنك لا تستطيع أن تهتز إلا لتلك الدماء التى تسفكها».

ثم مضى يترنح ماضيًا فى أثر أصحابه، فأسرع حجر إليه وضربه بيده على قفاه ضربة ألقته على الأرض صريعًا، وعاد يجرد سيفه للإجهاز عليه، فأدركه ربيعة مرة أخرى وأعاد عليه قوله الأول: «لا ينبغى لك أن تفعل ذلك بيدك».

فقال له حجر محنقًا: «إذًا تفعل ذلك أنت. اقتله وائتنى بعينيه الوقحتين اللتين تحملقان فىّ».

ومضى مسرعًا لا يكاد يرى مواقع أقدامه من شدة الغضب.

* * *